ضحايا لا صوت لهم

خالد شاهين (غزة)

إلى من نسيتُ اسمَه

في وجهِكَ لمعةٌ على سطحِ الماء. لوَّنتكَ الحقيقةُ، تعَضُّ الزُّرقةُ روحَك، تقبِضُ بيدينِ من خشبٍ على وترِ الأرغُول، دُموعُكَ يغرقُ منها البحرُ، وجوهٌ مشدوهةٌ تدلَّت في القاع، "يَقشرُ الشمسَ كبُرتقالة" لونُ غُروبكَ واضحٌ، وجهُكَ؛ كورالٌ يردّدُ خلفَ الأطفال "استُر يا ربّ" وها أنتَ بينَ الموتى وبينَ وُضوحِ اللّحظةِ، أنت أحسنُ مَنْ يَنسى مَنْ أنتَ. النسيانُ صديقُك الأبديّ، تحاولُ أن تنسى موتَكَ كموعدٍ إلى السينما. ما أطولَ بالَكَ! غنّي لِرفح، للشوارعِ، والمساكينِ، والجدَّاتِ الطيِّباتِ. الموتُ يحبُّ الصَّوتَ الرخيم، موجٌ أزرقُ يجمعُ صَدفَ الأخبارِ عنِ الرصيفِ العاصي على البيانِ، تقبِضُ على جمرةِ قهرٍ كي لا يفرَّ منكَ اللّحنُ إلى الماء، هل تذكَّرتَ صلاتَكَ المُؤجَّلةَ في اللحظةِ الخَبيرة! افرشَ موجتينِ على بِساطِ الزَّبَدِ، حاورَ حُوتًا يرقصُ بينَ صخرتينِ، فتِّشْ عن رُوحِكَ قبلَ أن تُصبحَ وجبةً شهيةً وتضيعَ، اجمعْ صدفاتِ الصُّدفةِ بعدَ كلِّ غرقٍ، استمرَّ في الغِناءِ للموتِ الذي يَمتنعُ عنِ الظهورِ، يوماً ما كنَّا واحداً فَلماذا صِرْنا اثنينِ؟ الود المسكون بعينيك واضحٌ في الصّورةِ التي أتعبتكَ. الآنَ أنتَ في مكانٍ جميلٍ على ما أظنُّ، بلا ملابسَ جديدةٍ، بلا حذاءٍ يلمعُ، بلا مسؤوليةٍ، صوتُكَ الدافئُ بينَ زهرتينِ يُوصِلُ الأحلامَ لنا على متنِ سفينةٍ خَربة. مُكتظَّةٌ شوارعُكَ. الشُّواطئُ لا أشرعةَ فيها، لا نوارسَ مزعجاتٌ، لا شهودَ أمامَ هذا الواسعِ. آن لكَ أن تخلعَ الحُزنَ من قَدمَيْكَ، وسِرْ واثقًا من مَوتكَ بينَ رصاصتينِ في حقلِ وردٍ، لا تصاحب من يجادلون في لونِ المِنديلِ وأحمرِ الشِّفاهِ وتكويرةِ نَهدٍ. لقد قتلوكَ مرَّةً وقَتلوها ألفَ مرَّةٍ في الثّانية.

وما زالَ في وجهِكَ عَلاماتُ نبيٍّ
وما يَكفي من حبٍّ لمدينةٍ كاملة.

غزة برتقالة من نحاس

صورةٌ جديدةٌ لكوكبٍ مُكتشف،
أكثر جموحاً مخيلتي البكر صارت،
سأذهب بعيداً إلى الممرات التي لا تؤدي إلى أي شيءٍ،
واثقاً من وصولي لرغبتي المُطفَأة،
لا تُصدِّق الصعود السهل للغايات

ولا السير المطمئن في الغابات،
نحن ضحايا لا صوت لهم في هذا الضجيج،
صغارُنا يحملون المسؤولية فوق ظهورهم
في حقيبة النزوح إلى الفراغ،
يصححون أخطاء اللغة في ميكروفونات القنوات الناقلة للتعب،
جوعى يثيرون شهية السؤال في فم الليل،
أحصنةٌ تجر الشهداء إلى صقيعٍ مبهم قبل أن يُفسد الموت نواياهم،
كسلٌ يصيب العين حين تنكسر الروح أمام قطعة حلوى
تحلم أن تراها، "القهوة ترف"،
الماء النظيف من الأمنيات إذا ما نقحت عليك رغوة الذاكرة.

يعزون أنفسهم بعبارات قالها قبلنا الآخرون:
"أعرف الثوار من رائحتهم النتنة"
طيِّعةٌ صوري المخزنة في المدارس المكتوب على بابها
"يسمح فقط دخول العربات واللاجئين"،
هل عند جوعي أكون سافلاً إذا لزم الأمر؟
هذا سؤالٌ سمج قلت في روحي،
لذا سأبحث عن أهلي في الفصول كي لا أضيع شهيتهم وفطور الصباح،
لا حول ولا علبة فول بعد هذا الانتظار المرِّ تسدُ هذا الباب،
إذن سأنتظر حتى تنتهي الفوضى
وتدخل الشاحنات المحملة بعيناتٍ منتهية الصلاحية،
هذا الجبن بطعم الدود،
والمربى مالح،
والخبز أصابه العفن،
المهم: هل يكفي الجميع؟
النسوة يتوغلنَ في الزحمة بصمتٍ،
شوكٌ عالق في حبالهن الصوتية
عندما سال من القلب الكلام،

الغاضب قال: استمروا، النعوش تكفي لنا،
هذا التَلوُّثُ البصري من صفات الذين يراؤون في الإحسان،
هددوا وتوعدوا وعددوا كل الصفات القبيحة لوكالة الغوث
التي ذلت الملهوف منا،
وأجبرت البعض أن يبكي ويضحك
ويلقى بالكبرياء في حاوية القمامة،
هذا الوقت صالح لرغيفِ خبزٍ،
وأنا أحارب بالنيابة عنكم وعن جوعي،
أقاتل من أجل وطن صار لوحة في المتاحف
وذكرى مغلفة في علب الهدايا.

خان الوقت، ولم يحن بعد، خان،
فافتح أجزاء مسدسك على النوم،
صوب نحو القهر رصاصاتك،
وخذ هذا الغريب معك يجمع فوارغها على درج الصحو،
متى تنتهي الحرب يا أمي؟
هل هذه الحقيقة فعلاً،
أم خيالٌ شاغر من الصور؟
يقول بوذا: دعوا خُبزكم على عتبات كهوفكم للجائعين،
واتركوا بعض الثمار على غصونها لعابري الطريق